مركز شؤون المرأة - غزة
Women's Affairs Center - Gaza

بدأت معاناتي مع زوجي الذي يعاني من تشنجات وإغماءات حتى مع أقل مجهود، مما جعله عاجزًا عن العمل...

"هذا كان آخر مشهد أتذكره، ولم أعِ بعدها سوى عندما استيقظت في المستشفى، مصابة في ظهري ويدي اليسرى وعينيَّ. وأخبرني الطبيب بكامل الأسى: للأسف، لا يمكنك الرؤية دون نظارة طبية. لم أبالِ بإصابتي، كل ما كان يهمني أن أطفالي بخير."

بين الإعاقة والنزوح قصة نجاة

تحمّلت رانيا (35 عامًا) من سكان معسكر جباليا شمال قطاع غزة، هموم الحياة منذ وقت مبكر. فقد حملت على عاتقها ثقل عائلتها ومسؤولياتها، خاصةً بعد زواجها من رجل لم يكن سندًا لها في رحلتها اليومية. وتضاعفت صعوبة حياتها مع اندلاع حرب الإبادة في قطاع غزة منذ أكتوبر 2023، حتى أنها أصبحت لا ترى إلا بواسطة نظارة طبية، بعد أن أصابها قصف في مارس 2024.

تشعر رانيا أنها تجاوزت عمر الخمسين، رغم أنها حصلت على شهادة البكالوريوس في اللغة العربية بتقدير امتياز. وهي أم لبنتين وولد: الكبرى تبلغ من العمر (10 أعوام)، والأصغر (6 أعوام)، والابن (5 أعوام). أما زوجها فيبلغ من العمر (34 عامًا)، ولم تكن رحلة حياتها سهلة على الإطلاق.

قبيل السابع من أكتوبر 2023، كانت لدى رانيا منزل جميل قامت بتأثيثه بالكامل من دخلها الخاص. كما كانت تدير مركزًا تعليمياً أكاديميًا مرخصًا من وزارة التربية والتعليم، يتمتع بسمعة طيبة ونجاح كبير، ويحظى باحترام وتقدير الجميع.

تقول رانيا: "بدأت معاناتي مع زوجي الذي يعاني من تشنجات وإغماءات حتى مع أقل مجهود، مما جعله عاجزًا عن العمل. ومع انعدام حس المسؤولية لديه تجاهي وتجاه أطفالي إلى أقصى درجة، وجدت نفسي مضطرة للقيام بدور الأم والأب معًا، اجتماعيًا ونفسيًا وماديًا. كنت قادرة على التحمل بفضل شهاداتي وعملي ودخلي الخاص ومكانتي المرموقة، التي كانت تجعلني أتجاهل اعتماده الكلي عليّ. لكن عندما حلت الإبادة الجماعية وفقدت منزلي وعملي وكل شيء، شعرت أن حياتي قد تحطمت بالفعل".

كان نزوح رانيا الأول من معسكر جباليا في العشرين من أكتوبر 2023، متجهة إلى مدينة دير البلح وسط قطاع غزة. وقد شكّل هذا النزوح أصعب تجربة شعورية وعملية واجهتها في حياتها، خاصة مع وجود أطفالها وتحمل مسؤوليتهم كاملة وحدها، دون أي سند أو دعم.

تضيف رانيا: "أجبرت على النزوح عندما أصدر جيش الاحتلال الإسرائيلي أمرًا بإخلاء سكان شمال قطاع غزة نحو الجنوب. حينها، لم أكن أعلم ماذا عليّ أن أفعل: إلى أين أذهب؟ مع من؟ ماذا يجب أن آخذ معي؟! تراودني العديد من الأسئلة بلا إجابات، وكل ما كنت أعلمه أنني أم، وعليّ أن أنقذ أطفالي من خطر الموت".

لجأت رانيا إلى أحد مخيمات النزوح القريبة من مستشفى شهداء الأقصى بمدينة دير البلح، حيث قضت مع عائلتها الصغيرة حياتها في خيمة. تصف النزوح بأنه أكبر لعنة من لعنات الإبادة على موطنها الدافئ، وكان عليها أن تتحمل غياب المأوى والعمل والدخل والطعام، وكل مقومات الحياة الأساسية. وإلى جانب ذلك، كان وجود زوجها عبئًا إضافيًا، إذ كانت تشعر وكأنها ترعى طفلًا صغيرًا لا يساندها في أبسط الأمور.

تقول رانيا: "كنتُ شجاعة بكل ما تحمله الكلمة من معنى. لا يمكنني القول إنني قوية فعلًيا، فأنا أشعر بضعف بالغ من الداخل، لكنني أظهر بمظهر القوة فقط من أجل صغاري، لأكون لهم سندًا وملجأً وسط هذه الغابة التي نعيش فيها بلا أي مقومات للأمان أو الاستقرار".

وفي الثاني عشر من مارس 2024، عند الساعة الواحدة ظهرًا، جاءت الضربة التي قسمت ظهر رانيا. فقد قررت إخلاء المكان الذي نزحت إليه في جنوب القطاع، والذي زعم جيش الاحتلال أنه آمن للجوء، لكنه تحول إلى منطقة قتال شديدة الخطورة. تعرّض المكان لقصف عنيف، فاضطر جميع النازحين إلى الإخلاء، ولم يتبقَ إلا رانيا وأطفالها.

وجدت رانيا نفسها وحيدة في المكان، فقررت الإخلاء والهروب. حملت ابنها الصغير بين ذراعيها واحتضنت سيما وساندي، لكنها لم تنجُ من الضربات الجوية الوحشية للجيش الصهيوني. فما إن خرجت إلا ووجدت نفسها ملقاة على الأرض، طالتها الشظايا من كل جانب، بينما ألهم الله أطفالها بالاحتماء واللجوء إلى بقالة على الزاوية لحماية أنفسهم.

تضيف رانيا: "هذا كان آخر مشهد أتذكره، ولم أعِ بعدها سوى عندما استيقظت في المستشفى، مصابة في ظهري ويدي اليسرى وعينيّ. وأخبرني الطبيب بكامل الأسى: للأسف، لا يمكنك الرؤية دون نظارة طبية. لم أبالِ بإصابتي، كل ما كان يهمني أن أطفالي بخير".

تتابع رانيا: "لقد انكسرت نظارتي ولا أملك المال لشراء واحدة جديدة. لا أستطيع الرؤية، ولا أتمكّن من الاعتناء بأطفالي كما كنت أفعل سابقًا. شعرت بعدم وجود سند لي أكثر من أي وقت مضى، وأصبحت أواجه ظروفًا صعبة لم أتعامل معها من قبل، ولا أقوى على تحملها".

لم يعد الأمر بالنسبة لرانيا مجرد مواجهة ألم النزوح والخوف من القصف أو غياب أي سند لها، بل تحول إلى صراع يومي للبقاء ومواجهة الحياة في أقسى الظروف الممكنة. جسدها وعينها ونفسيتها وحياتها بأكملها أصبحت معرضة للأذى، وقد واجهت جميع أصناف الألم بمفردها، حاملة مسؤولية أطفالها وعبء زوجها وعائلته، الذين لا يقدّرون شيئًا من المعاناة التي تعيشها.

تجد رانيا اليوم نفسها نازحة مع أطفالها في حمام أحد مدارس غرب مدينة غزة، بعد أن كان لها بيت عامر وعمل ناجح ومستقبل آمن. بين فقدان المنزل والعمل، وإصابتها الجسدية وضعف بصرها، وغياب أي سند حقيقي في حياتها، أصبحت تحمل فوق طاقتها ما لا تستطيع الجبال احتماله.

تقول رانيا: "تجربتي تعلّمنا أن المرأة في غزة لا تُقاس قوتها بقدرتها على الاحتمال فقط، بل بقدرتها على الاستمرار رغم الانكسار. لم يعد النجاح مقتصرًا على الشهادة الجامعية أو المركز التعليمي أو المنزل المزّين بالأثاث الجميل، بل أصبح النجاح هو النجاة اليومية: أن أتمكّن من حماية أطفالي من الجوع والخوف والموت، حتى في ظل غياب أبسط مقومات الحياة".